بَابٌ
مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فيهِ ذِكْرُ اللّهِ أَوِ القُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ

.....

هٰذه الترجمة فيها شيء من الغموض، والظاهر أن المراد من هزل بشيء فيه ذكر الله مثل الأحكام الشرعية، أو هزل بالقرآن أو هزل بالرسول ﷺ؛ فيكون معطوفًا على قوله بشيء. والمراد بالرسول هنا: اسم الجنس، فيشمل جميع الرسل، وليس المراد محمدًا ﷺ؛ فـ(أل) للجنس وليست للعهد.

قوله: «من هزل»: سخر واستهزأ ورآه لعبًا ليس جدًّا. ومن هزل بالله أو بآياته الكونية أو الشرعية أو برسله؛ فهو كافر؛ لأن منافاة الاستهزاء للإيمان منافاة عظيمة. كيف يسخر ويستهزئ بأمر يؤمن به؟! فالمؤمن بالشيء لا بد أن يعظمه وأن يكون في قلبه من تعظيمه ما يليق به.

والكفر كفران: كفر إعراض، وكفر معارضة، والمستهزئ كافر كفر معارضة؛ فهو أعظم ممن يسجد لصنم فقط، وهٰذه المسألة خطيرة جدًّا، ورب كلمة أوقعت بصاحبها البلاء بل والهلاك وهو لا يشعر؛ فقد يتكلم الإنسان بالكلمة من سخط الله ـ عز وجل ـ لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار. فمن استهزأ بالصلاة ـ ولو نافلة ـ، أو بالزكاة، أو الصوم، أو الحج؛ فهو كافر بإجماع المسلمين، كذٰلك من استهزأ بالآيات الكونية بأن قال مثلاً: إن وجود الحر في أيام الشتاء سفه، أو قال: إن وجود البرد في أيام الصيف سفه؛ فهٰذا كفر مخرج عن الملة؛ لأن الرب ـ عز وجل ـ كل أفعاله مبنية على الحكمة وقد لا نستطيع بلوغها بل لا نستطيع بلوغها.

.....

ثم اعلم أن العلماء اختلفوا فيمن سَبَّ الله أو رسوله أو كتابه: هل تقبل توبته؟

على قولين:

القول الأول: أنها لا تقبل، وهو المشهور عند الحنابلة، بل يقتل كافرًا، ولا يُصلى عليه، ولا يُدعى له بالرحمة، ويدفن في محل بعيد عن قبور المسلمين، ولو قال: إنه تاب أو إنه أخطأ؛ لأنهم يقولون: إن هٰذه الردة أمرها عظيم وكبير لا تنفع فيها التوبة.

وقال بعض أهل العلم: إنها تقبل إذا علمنا صدق توبته إلى الله، وأقر على نفسه بالخطأ، ووصف الله تعالى بما يستحق من صفات التعظيم، وذٰلك لعموم الأدلة الدالة على قبول التوبة؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، ومن الكفار من يسبون الله، ومع ذٰلك تقبل توبتهم. وهٰذا هو الصحيح، إلا أن سابَّ الرسول ﷺ تقبل توبته ويجب قتله، بخلاف من سب الله؛ فإنها تقبل توبته ولا يقتل، لا لأن حق الله دون حق الرسول ﷺ، بل لأن الله أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد إليه بأنه يغفر الذنوب جميعًا، أما سابّ الرسول ﷺ؛ فإنه يتعلق به أمران:

الأول: أمر شرعي لكونه رسول الله ﷺ، ومن هٰذا الوجه تقبل توبته إذا تاب.

الثاني: أمر شخصي لكونه من المرسلين، ومن هٰذا الوجه يجب قتله لحقه ﷺ ويقتل بعد توبته على أنه مسلم، فإذا قتل؛ غَسَّلناه وكَفَّناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين. وهٰذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد أَلَّف كتابًا في ذٰلك اسمه: «الصارم المسلول في حكم قتل ساب الرسول»، أو:

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[1] الآية.

«الصارم المسلول على شاتم الرسول»، وذلك لأنه استهان بحق الرسول ﷺ، وكذا لو قذفه؛ فإنه يقتل ولا يجلد.

فإن قيل: أليس قد ثبت أن من الناس من سب الرسول ﷺ وقَبِل منه وأطلقه؟

أجيب: بلى، هٰذا صحيح، لٰكن هٰذا في حياته ﷺ، وقد أسقط حقه، أما بعد موته؛ فلا ندري، فننفذ ما نراه واجبًا في حق من سبه ﷺ.

فإن قيل: احتمال كونه يعفو عنه أو لا يعفو موجب للتوقف؟

أجيب: إنه لا يوجب التوقف؛ لأن المفسدة حصلت بالسب، وارتفاع أثر هٰذا السب غير معلوم، والأصل بقاؤه.

فإن قيل: أليس الغالب أن الرسول ﷺ عفا عَمَّن سبه؟

أجيب: بلى، وربما كان في حياة الرسول ﷺ إذا عفا قد تحصل المصلحة ويكون في ذٰلك تأليف، كما أنه ﷺ يعلم أعيان المنافقين ولم يقتلهم؛ لئلا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، لٰكن الآن لو علمنا أحدًا بعينه من المنافقين لقتلناه، قال ابن القيم: إن عدم قتل المنافق المعلوم إنما هو في حياة الرسول ﷺ فقط.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: سألت هٰؤلاء الذين يخوضون ويلعبون بالاستهزاء بالله وكتابه ورسوله والصحابة.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٦٧.

.....

قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: جواب القسم، قال ابن مالك:

واحْذَفْ لَدَى اجتماعِ شَرْطٍ وقَسَم جَوَابَ ما أخّرتَ فهو مُلْتَزم[1]

ولهٰذا جاءت اللام التي تقترن بجواب القسم دون الفاء التي تقع في جواب الشرط.

قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾؛ أي: المسؤولون.

قوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾: أي: ما لنا قصد، ولٰكننا نخوض ونلعب، واللعب يقصد به الهزء، وأما الخوض؛ فهو كلام عائم لا زمام له. هٰذا إذا وصف بذٰلك القول، وأما إذا لم يوصف به القول؛ فإنه يكون الخوض في الكلام واللعب في الجوارح.

وقوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر؛ أي: ما شأننا وحالنا إلا أننا نخوض ونلعب.

قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتعجب، فينكر عليهم أن يستهزئوا بهٰذه الأمور العظيمة، ويتعجب كيف يكون أحق الحق محلاً للسخرية؟

قوله: ﴿أَبِاللَّهِ﴾: أي: بذاته وصفاته.

قوله: ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾: جمع آية ويشمل: الآيات الشرعية؛ كالاستهزاء بالقرآن، بأن يقال: هٰذا أساطير الأولين ـ والعياذ بالله ـ، أو يستهزأ بشيء من الشرائع؛ كالصلاة والزكاة والصوم والحج.

والآيات الكونية؛ كأن يسخر بما قَدَّره الله تعالى، كيف يأتي هٰذا في

(١) «ألفية ابن مالك» (ص٥٢).

.....

هٰذا الوقت؟ كيف يخرج هٰذا الثمر من هٰذا الشيء؟ كيف يخلق هٰذا الذي يضر الناس ويقتلهم؟ استهزاءً وسخريةً.

قوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: المراد هنا محمد ﷺ.

قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾: المراد بالنهي التيئيس؛ أي: انههم عن الاعتذار تيئيسًا لهم بقبول اعتذارهم.

قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾: أي: بالاستهزاء وهم لم يكونوا منافقين خالصين بل مؤمنين، ولٰكن إيمانهم ضعيف، ولهٰذا لم يمنعهم من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله.

قوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾: ﴿نَّعْفُ﴾: ضمير الجمع للتعظيم؛ أي: الله ـ عز وجل ـ.

وقوله: ﴿عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾: قال بعض أهل العلم: هٰؤلاء حضروا وصار عندهم كراهية لهٰذا الشيء، لٰكنهم داهنوا فصاروا في حكمهم لجلوسهم إليه، لٰكنهم أخف لما في قلوبهم من الكراهة، ولهٰذا عفا الله عنهم وهداهم للإيمان وتابوا.

قوله: ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾: هٰذا جواب الشرط؛ أي: لا يمكن أن نعفوَ عن الجميع، بل إن عفونا عن طائفة؛ فلا بد أن نعذب الآخرين.

قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾: الباء للسببية؛ أي: بسبب كونهم مجرمين بالاستهزاء وعندهم جرم ـ والعياذ بالله ـ؛ فلا يمكن أن يوفقوا للتوبة حتى يُعفى عنهم.

ويستفاد من الآيتين:

.....

١ ـ بيان علم الله ـ عز وجل ـ بما سيكون؛ لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾، وهٰذا مستقبل؛ فالله عالم ما كان وما سيكون، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣].

٢ ـ أن الرسول ﷺ يحكم بما أنزل الله إليه حيث أمره أن يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ...﴾.

٣ ـ أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله من أعظم الكفر؛ بدليل الاستفهام والتوبيخ.

٤ ـ أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله أعظم استهزاء وقبحًا؛ لقوله: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ...﴾، وتقديم المتعلق يدل على الحصر كأنه ما بقي إلا أن تستهزئوا بهٰؤلاء الذين ليسوا محلاً للاستهزاء، بل أحق الحق هٰؤلاء الثلاثة.

٥ ـ أن المستهزئ بالله يكفر؛ لقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

٦ ـ استعمال الغلظة في محلها، وإلا؛ فالأصل أن من جاء يعتذر يرحم، لٰكنه هنا ليس أهلاً للرحمة.

٧ ـ قبول توبة المستهزئ بالله؛ لقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ...﴾، وهٰذا أمر قد وقع، فإن من هٰؤلاء من عفي عنه وهُديَ للإسلام وتاب وتاب الله عليه، وهٰذا دليل للقول الراجح أن المستهزئ بالله تقبل توبته، لٰكن لا بد من دليل بيّن على صدق توبته؛ لأن كفره من أشد الكفر أو هو أشد الكفر، فليس مثل كفر الإعراض أو الجحد.

وهٰؤلاء الذين حضروا السب مثل الذين سبوا، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ

عَنِ ابنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدِ بنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةَ؛ دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ: «**أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ**: .....

عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠] وهم يستطيعون المفارقة، والنبي ﷺ امتثل أمر الله بتبليغهم، حتى إن الرجل الذي جاء يعتذر صار يقول له: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، ولا يزيد على هٰذا أبدًا مع إمكان أن يزيده توبيخًا وتقريعًا.

* * *

قوله: «**عن ابن عمر**»: هو عبد الله.

وقوله: «**ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة**»: والثلاثة تابعيون؛ فالرواية عن ابن عمر مرفوعة، وعن الثلاثة الآخرين مرسلة.

قوله: «**دخل حديث بعضهم في بعض**»: أي: إن هٰذا الحديث مجموع من كلامهم، وهٰذا يفعله بعض أئمة الرواة كالزهري وغيره، فيحدثه جماعة بشأن قصة من القصص كحديث الإفك مثلًا، فيجمعون هٰذا ويجعلونه في حديث واحد، ويشيرون إلى هٰذا، فيقولون ـ مثلًا ـ: دخل حديث بعضهم في بعض، أو يقول: حدثني بعضهم بكذا وبعضهم بكذا، وما أشبه ذٰلك.

قوله: «**في غزوة تبوك**»: تبوك في أطراف الشام، وكانت هٰذه الغزوة في رجب حين طابت الثمار، وكان مع الرسول ﷺ في هٰذه الغزوة نحو ثلاثين ألفًا، ولما خرجوا رجع عبد الله بن أُبَيّ بنحو نصف المعسكر، حتى قيل: إنه لا يدرى أي الجيشين أكثر: الذين رجعوا، أو الذين ذهبوا؟

مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هٰؤلاَءِ؛ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلاَ أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلاَ أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ (يَعْنِي: رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءَ). .....

مما يدل على وفرة النفاق في تلك السنة، وكانت في السنة التاسعة، وسببها أنه قيل للنبي ﷺ: إن قومًا من الروم ومن متنصرة العرب يجمعون له، فأراد أن يغزوهم ﷺ إظهارًا للقوة وإيمانًا بنصر الله ـ عز وجل ـ.

قوله: «**ما رأينا**»: تحتمل أن تكون بصرية، وتحتمل أن تكون علمية قلبية.

قوله: «**مثل قرائنا**»: المفعول الأول، والمراد بهم الرسول ﷺ وأصحابه.

قوله: «**أرغب بطونا**»: المفعول الثاني؛ أي: أوسع، وإنما كانت الرغبة هنا بمعنى السعة؛ لأنه كلما اتسع البطن رغب الإنسان في الأكل.

قوله: «**ولا أكذب ألسنًا**»: الكذب: هو الإخبار بخلاف الواقع، والألسن: جمع لسان، والمراد: ولا أكذب قولاً، واللسان يطلق على القول كثيرًا في اللغة العربية؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]؛ أي: بلغتهم.

قوله: «**ولا أجبن عند اللقاء**»: الجُبْن: هو خَوَر في النفس يمنع المرء من الإقدام على ما يكره؛ فهو خلق نفسي ذميم، ولهٰذا كان النبي ﷺ يستعيذ منه[1] لما يحصل فيه من الإحجام عما ينبغي الإقدام إليه؛ فلهٰذا كان صفة ذميمة، وهٰذه الأوصاف تنطبق على المنافقين لا على المؤمنين، فالمؤمن يأكل بمعي واحد: ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث

(١) أخرجه: البخاري (في الجهاد، باب ما يتعوذ من الجبن، ٢/ ٣١٢)؛ من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلٰكِنَّكَ مُنَافِقٌ؛ لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ، فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلى رَسُولِ اللّهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ، .....

لنَفْسِه، والكافر يأكل بسبعة أمعاء، والمؤمن أصدق الناس لسانًا ولا سيما النبي ﷺ وأصحابه؛ فإن الله وصفهم بالصدق في قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

والمنافقون أكذب الناس؛ كما قال الله فيهم: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١]، وجعل النبي ﷺ الكذب من علامات النفاق[1]، والمنافقون من أجبن الناس، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ . . .﴾ [المنافقون: ٤]، فلو سمعوا أحدًا ينشد ضالته؛ لقالوا: عدو، عدو، وهم أحب الناس للدنيا؛ إذ أصل نفاقهم من أجل الدنيا ومن أجل أن تحمى دماؤهم وأموالهم وأعراضهم.

قوله: «**كذبت**»: أي: أخبرت بخلاف الواقع، وفي ذلك دليل على تكذيب الكذب مهما كان الأمر، وأن السكوت عليه لا يجوز.

قوله: «**ولكنك منافق**»: لأنه لا يطلق هٰذه الأوصاف على رسول الله ﷺ وأصحابه رجل تسمى بالإسلام إلا منافق، وبهٰذا يعرف أن من يسب أصحاب رسول الله ﷺ أنه كافر؛ لأن الطعن فيهم طعن في الله ورسوله وشريعته. فيكون طعنًا في الله؛ لأنه طعن في حكمته، حيث اختار لأفضل خلقه أسوأ خلقه. وطعنًا في الرسول ﷺ: لأنهم أصحابه، والمرء على دين خليله، والإنسان يُستدل على صلاحه أو فساده أو سوء

(١) أخرجه: البخاري في (الإيمان، باب علامة المنافق، ١/ ٢٧)، ومسلم في (الإيمان، باب بيان خصال المنافق، ١/ ٧٨)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فَوَجَدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذٰلِكَ الرَّجُلُ إِلى رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ! إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنا الطَّرِيقَ. قَالَ ابنُ عُمَرَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ، وإِنَّ الحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، .....

أخلاقه أو صلاحها بالقرين. وطعنًا في الشريعة: لأنهم الواسطة بيننا وبين الرسول ﷺ في نقل الشريعة، وإذا كانوا بهٰذه المثابة؛ فلا يوثق بهٰذه الشريعة.

قوله: «**فوجد القرآن قد سبقه**»: أي: بالوحي من الله تعالى، والله عليم بما يفعلون وبما يريدون وبما يبيتون، قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨].

قوله: «**وقد ارتحل وركب ناقته**»: الظاهر أن هٰذا من باب عطف التفسير؛ لأن ركوب الناقة هو الارتحال.

قوله: «**كأني أنظر إليه**»: كأن إذا دخلت على مشتق؛ فهي للتوقع، وإذا دخلت على جامد؛ فهي للتشبيه، وهنا دخلت على جامد، والمعنى: كأنه الآن أمامي من شدة يقيني به.

قوله: «**بنسعة**»: هي الحزام الذي يربط به الرحل.

قوله: «**والحجارة تنكب رجليه**»: أي: يمشي والحجارة تضرب رجليه وكأنه ـ والله أعلم ـ يمشي بسرعة، ولٰكنه لا يحس في تلك الحال؛ لأنه يريد أن يعتذر.

وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ. فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾[1]؛ مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ»[2].

● فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: وَهِيَ العَظِيمَةُ؛ أَنَّ مَنْ هَزَلَ بِهٰذَا كَافِرٌ.

الثانية: أَنَّ هٰذا هُوَ تَفْسِيرُ الآيَةِ فيمَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ كائِنًا مَنْ كَانَ.

الثالثة: الفَرْقُ بَيْنَ النَّمِيمَة وَبَيْنَ النَّصِيحَة للّهِ وَلِرَسُولِهِ.

قوله: «وما يزيده عليه»: أي: لا يزيده على ما ذكر من توبيخ امتثالاً لأمر الله ـ عز وجل ـ، وكفى بالقول الذي أرشد الله إليه نكايةً وتوبيخًا.

* * *

فيه مسائل:

● **الأولى ـ وهي العظيمة ـ: أن من هزل بهٰذا كافر**: أي من هزل بالله وآياته ورسوله.

● **الثانية: أن هٰذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذٰلك كائنًا من كان**: أي: سواء كان منافقًا أو غير منافق ثم استهزأ؛ فإنه يكفر كائنًا من كان.

● **الثالثة: الفرق بين النميمة والنصيحة لله ولرسوله**: النميمة: من

---

(١) سورة التوبة: الآية ٦٧.

(٢) أخرجه: ابن جرير (١٠/١١٩)، وابن أبي حاتم؛ كما في «الصحيح المسند» لمقبل بن هادي (ص٧٧).

الرابعة: الفَرْقُ بَيْنَ العَفْوِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللّهُ وَبَيْنَ الغِلْظَةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللّهِ.

نَمَّ الحديث؛ أي: نقله ونسبه إلى غيره، وهي نقل كلام الغير للغير بقصد الإفساد، وهي من أكبر الذنوب، قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة نمام**»(١)، وأخبر عن رجل يعذب في قبره؛ لأنه كان يمشي بالنميمة(٢)، وأما النصيحة لله ورسوله؛ فلا يقصد بها ذٰلك، وإنما يقصد بها احترام شعائر الله ـ عز وجل ـ وإقامة حدوده وحفظ شريعته، وعوف بن مالك نقل كلام هٰذا الرجل لأجل أن يقام عليه الحد أو ما يجب أن يقام عليه وليس قصده مجرد النميمة. ومن ذٰلك لو أن رجلاً اعتمد على شخص ووثق به، وهٰذا الشخص يكشف سره ويستهزئ به في المجالس، فإنك إذا أخبرت هٰذا الرجل بذٰلك؛ فليس هٰذا من النميمة، بل من النصيحة.

● **الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله**: العفو الذي يحبه الله: هو الذي فيه إصلاح؛ لأن الله اشترط ذٰلك في العفو فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ أي: كان عفوه مشتملاً على الإصلاح، وقال بعضهم: أي أصلح الود بينه وبين من أساء إليه، وهٰذا تفسير قاصر، والصواب أن المراد به أصلح في عفوه؛ أي: كان في عفوه إصلاح. فمن كان عفوه إفسادًا لا إصلاحًا؛ فإنه آثم بهٰذا العفو، ووجه ذٰلك من الآية ظاهر؛ لأن الله قال: ﴿عَفَا وَأَصْلَحَ﴾، ولأن العفو إحسان والفساد إساءة، ودفع الإساءة أولى، بل العفو حينئذ محرم.

والنبي ﷺ غَلَّظ على هٰذا الرجل لكونه ﷺ لم يلتفت إليه، ولا

---

(١) أخرجه: البخاري (١٠/ ٤٧٦ ـ فتح)، ومسلم (١/ ١٠١).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ٣١٧ ـ فتح)، ومسلم (١/ ٢٤٠).

الخامسة: أَنَّ مِنَ الاعْتِذَارِ مَا لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُقْبَلَ.

يزيد على هٰذا الكلام الذي أمره الله به مع أن الحجارة تَنْكُب رجل الرجل، ولم يرحمه النبي ﷺ ولم يرق له، ولكل مقام مقال؛ فينبغي أن يكون الإنسان شديدًا في موضع الشدة، لينًا في موضع اللين، لٰكن أعداء الله ـ عز وجل ـ الأصل في معاملتهم الشدة، قال تعالى في وصف الرسول ﷺ وأصحابه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]، ذكرها الله في سورتين من القرآن مما يدل على أنها من أهم ما يكون، لكن استعمال اللين أحيانًا للدعوة والتأليف قد يكون مستحسنًا.

● **الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل**: فالأصل في الاعتذار أن يقبل لا سيما إذا كان المعتذر محسنًا، لٰكن حصلت منه هفوة، فإن علم أن الاعتذار باطل؛ فإنه لا يقبل.

* * *

بَابٌ
قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾[1] الآية.

مناسبة الباب لـ«كتاب التوحيد»

أن الإنسان إذا أضاف النعمة إلى عمله وكسبه؛ ففيه نوع من الإشراك بالربوبية، وإذا أضافها إلى الله لٰكنه زعم أنه مستحق لذٰلك وأن ما أعطاه الله ليس محض تفضل، لٰكن لأنه أهل؛ ففيه نوع من التَّعلِّي والتَّرفُّع في جانب العبودية.

وقد ذكر الشيخ فيه آيتين:

* * *

● **الآية الأولى: ما ترجم به المؤلف، وهي قوله تعالى:** ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾: الضمير يعود على الإنسان، والمراد به الجنس. وقيل: المراد به الكافر. والظاهر أن المراد به الجنس؛ إلا أنه يمنع من هٰذه الحال الإيمان، فلا يقول ذٰلك المؤمن، قال تعالى قبلها: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ

(١) سورة فصلت: الآية ٥٠.

.....

وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٧ ـ ٤٩]، هٰذه حال الإِنسان من حيث هو إنسان، لٰكن الإِيمان يمنع الخصال السيئة المذكورة.

قوله: ﴿مِنَّا﴾: أضافه الله إليه؛ لوضوح كونها من الله، ولتمام مِنّته بها.

قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾: أي: أنه لم يذق الرحمة من أول أمره، بل أصيب بضراء؛ كالفقر وفقد الأولاد وغير ذٰلك، ثم أذاقه بعد ذٰلك الرحمة حتى يحس بها وتكون لَذَّتها والسرور بها أعظم مثل الذائق للطعام بعد الجوع.

قوله: ﴿مَسَّتۡهُ﴾: أي: أصابته وأثَّرت فيه.

قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾: هٰذا كفر بنعمة الله وإعجاب بالنفس، واللام في قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ واقعة في جواب القسم المُقدَّر قبل اللام في قوله: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾: بعد أن انغمس في الدنيا نسي الآخرة، بخلاف المؤمن إذا أصابته الضراء لجأ إلى الله، ثم كشفها، ثم وجد بعد ذٰلك لَذّة وسرورًا يشكر الله على ذٰلك، أما هٰذا؛ فقد نسي الآخرة وكفر بها.

قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾: (إن): شرطية وتأتي فيما يمكن وقوعه وفيما لا يمكن وقوعه؛ كقوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، والمعنى: على فرض أن أرجع إلى الله إن لي عنده للحسنى. والحُسنى: اسم تفضيل؛ أي: الذي هو أحسن من هٰذا، واللام للتوكيد.

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هٰذا بِعَمَلِي، وَأَنا مَحْقُوقٌ بِهِ».

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: «يُرِيدُ: مِنْ عِنْدِي».

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾[1].

قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المَكَاسِبِ».

قوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾: أي: فلننبئن هٰذا الإنسان، وأظهر في مقام الإضمار من أجل الحكم على هٰذا القائل بالكفر ولأجل أن يشمله الوعيد وغيره.

قول مجاهد: «**هذا بعملي وأنا محقوق به**»: أي: هذا بكسبي وأنا مستحق له.

قول ابن عباس: «**يريد من عندي**»: أي: من حذقي وتصرفي وليس من عند الله.

* * *

● **الآية الثانية: قوله تعالى:** ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: في القرآن آيتان: آية قال الله فيها: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩]، الثانية: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾، والظاهر من تفسير المؤلف أنه يريد الآية الثانية.

قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: في معناه أقوال:

الأول: قال قتادة: على علم مِنِّي بوجوه المكاسب، فيكون العلم عائدًا على الإنسان؛ أي: إنني عالم بوجوه المكاسب ولا فضل لأحد عَليَّ فيما أوتيته، وإنما الفضل لي، وعليه يكون هٰذا كفرًا بنعمة الله وإعجابًا بالنفس.

---

(١) سورة القصص: الآية ٧٨.

وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنِّي لَهُ أَهلٌ.

وهٰذا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ»(١).

الثاني: قال آخرون: على علم من الله أني له أهل؛ فيكون بذٰلك مُدِلاً على الله، وأنه أهل ومستحق لأن ينعم الله عليه، والعلم هنا عائد على الله؛ أي: أوتيت هٰذا الشيء على علم من الله أني مستحق له وأهل له.

الثالث: قول مجاهد: «**أوتيته على شرف**»، وهو من معنى القول الثاني، فصار معنى الآية يدور على وجهين:

الوجه الأول: أن هٰذا إنكار أن يكون ما أصابه من النعمة من فضل الله، بل زعم أنها من كسب يده وعلمه ومهارته.

الوجه الثاني: أنه أنكر أن يكون لله الفضل عليه، وكأنه هو الذي له الفضل على الله؛ لأن الله أعطاه ذلك لكونه أهلاً لهذه النعمة. فيكون على كلا الأمرين غير شاكر لله ـ عز وجل ـ، والحقيقة أن كل ما نؤتاه من النعم فهو من الله؛ فهو الذي يسّرها حتى حصلنا عليها، بل كل ما نحصل عليه من علم أو قدرة أو إرادة فمن الله؛ فالواجب علينا أن نضيف هٰذه النعم إلى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، حتى ولو حصلت لك هٰذه النعمة بعلمك أو مهارتك؛ فالذي أعطاك هٰذا العلم أو المهارة هو الله ـ عز وجل ـ، ثم إن المهارة أو العلم قد لا يكون سببًا لحصول الرزق؛ فكم من إنسان عالم أو ماهر حاذق ومع ذٰلك لا يوفق بل يكون عاطلاً؟!

وشكر النعمة له ثلاثة أركان:

١ ـ الاعتراف بها في القلب.

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٠/١٠٧)، و«الدر المنثور» (٥/١٣٧).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُول: «**إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، .....**

٢ ـ الثناء على الله باللسان.

٣ ـ العمل بالجوارح بما يرضي المنعم.

فمن كان عنده شعور في داخل نفسه أنه هو السبب لمهارته وجودته وحذقه؛ فهٰذا لم يشكر النعمة، وكذٰلك لو أضاف النعمة بلسانه إلى غير الله أو عمل بمعصية الله في جوارحه، فليس بشاكر لله تعالى.

* * *

قوله: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: أن ثلاثة من بني إسرائيل»: جميع القصص الواردة في القرآن وصحيح السنة ليس المقصود منها مجرد الخبر، بل يقصد منها العبرة والعظة مع ما تكسب النفس من الراحة والسرور، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

قوله: «من بني إسرائيل»: في محل نصب نعت لـ«**ثلاثة**»، وبنو إسرائيل هم ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والتسليم.

قوله: «أبرص»: أي: في جلده برص، والبرص داء معروف، وهو من الأمراض المستعصية التي لا يمكن علاجها بالكلية، وربما توصلوا أخيرًا إلى عدم انتشارها وتوسعها في الجلد، لٰكن رفعها لا يمكن، ولٰهذا جعلها الله آية لعيسى، قال تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

قوله: «أقرع»: مَنْ ليس على رأسه شعر.

قوله: «أعمى»: من فقد البصر.